

تهذيب النفس

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - حق التقوى، ففي التقوى تيسير الأمور، ودفع كلِّ شرٍّ ومحذور.

أيها المسلمون:

لقد أكمل الله لنا الدين وأتم علينا به النعمة، شرع أصوله متقنة وقواعده محروسة، جمع مصالح العباد، يأمر بالمكارم وينهى عن المفسد، وإنَّ علوَّ المرء إنما يكون بالدين والأخلاق والآداب، وتهذيب النفوس عونٌ على عمارة القلوب، ودليل على محامد الأمور، وللأخلاق حدٌّ متى جاوزته صارت عدواناً، ومتى قصرت عنه كانت مهانة ونقصاً، فحاسب نفسك عن أيامها، واعلم أن ما ذهب منها لن يستخلف، ومن طباع النفس الآمرة بالسوء، أن تدعي المعاذير فيما مضى، والأمانى فيما بقي، وأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه أخذاً، ومن عرف شرف الوجود سعى لتحصيل أفضل الموجود، والعمر موسم والمستيقظ لا يطلب إلا

الأنفس، وما اللذة في الحياة إلا بالاستقامة، والسَّعيد من وُفق لاغتنام العافية، وزيادة المنازل في الجَنَّة على قدر التَّزود من الفضائل، وأفضل ما اشتغل به العبد علم الشريعة، وما بعده بمنزلة التابع، وإذا عُدَّ العلم وقع الضلال، والعمر عزيز والعلم عزيز، والأولى تقديم الأهم فالأهم، والكدح في طلب العلم الذي يلتبس به صلاح الدين والدُّنيا أحق من الكدح في طلب المتاع، وما ثمرة الحياة إلا العلم والعمل.

ومن أراد دوام السَّلامة فليراقب الله، فما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافي تقواه إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة، ومن الاغترار أن تسيء فترى إحساناً فتظنُّ أنك قد سومحت، ورُبَّما رأى العاصي سلامةً بدنه وماله فظن أن لا عقوبة عليه وما علم أن غفلته عما عوقب به عقوبة، والمعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والعقوبات قد تَبَغَّت، وقد يؤخرها الحلم، وللخطايا تأثيرات قبيحة إن أسرع، وإن اجتمعت آذت، وما شيء ينفع كالتضرع مع مجانبة الخطايا، فشرارة تستصغر ربما أحرقت بلداً، ومن تأمل ذلَّ إخوة يوسف حين قالوا: ﴿وَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: الآية ٨٨] عرف شؤم الزلل، ومن تعرض للشهوات ثم طلب إصلاح القلب رام ممتنعاً، فابتعد عن أسباب الفتن فإن المقاربة منها محنة لا يكاد صاحبها يسلم، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ومن صابر الهوى أينعت له ثمرات الدنيا، فإن ضاق به أمر وسَّعه الصَّبر، وطيبه الرِّضا، ورُبَّ عشرة أهلكت، ورُبَّ فارط لا يستدرك، والنَّفْس طامعة إذا أطعمتها فألجمها بلجام الأوامر والنواهي، ومن الشقاء في الدنيا أن تطلب النهاية في لذاتها، وليس في الدنيا لذة إنما هي راحة من مؤلم.

ولقاء الإخوان وإن كان يسيراً غنم حسن في الحياة معين على الطاعة، والخصال الصالحة من البرِّ لا تحيا إلا بالموافقين في الطباع، فلا تعاشر إلا ذوي فضل في الرأي، وثقة في المودة، وأمانة في السرِّ، ووفاء

بالإخاء، وعليك بتدبير الأولاد بحفظهم من مخالطة تُفسد مستقبلهم، واحملهم على صحبة الأخيار؛ فإن الطبع سراق.

واجعل لنفسك ساعة ترفع فيها حاجتك إلى ربك، وساعة تحاسب فيها نفسك، وتلمح الجوارح مخافة أن تبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط، وأحق الأشياء بالضبط اللسان والعين، وإطلاق البصر في المحرم ينغص السعادة ويُنقص المخالطة ويكدر العيش مع الحاضر القريب، وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون الحق، إلا انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً.

وشهوات الدنيا مصائد هلاك، وليس أرجى في مجاهدة النفس من العزم والحزم معها، والدنيا مفازة يجب أن يكون السابِق فيها الدين، ومن أوكل زمام راحلته إلى طبعه وهواه تلف، ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما فعل إخوة يوسف بيوسف ما فعلوا وشروه بثمن بخس امتدت أكفهم بين يديه بالطلب يقولون: تصدق علينا.

ولا تغتر بالشباب والصحة فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يقل من يكبر، ومن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، وانظر في الإخلاص فما شيء ينفع دونه، ولا تبع عزك بذل المعاصي، فعلى قدر مجاهدتك في ترك ما تهوى تقوى محبتك، ولا تدع فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلتها، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة، وأنت في ميدان الأوقات فيه تنتهب، فلا تخلد إلى الكسل، فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم، واضرب عنق العجب وأذهب بطر الكبر، يقول الإمام أحمد - رحمه الله -: «ينبغي أن لا تسمع من معظم نفسه شيئاً».

وإذا تعلقت بالأسباب مُجِي أثر الأسباب يقول جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: الآية ٢٥]، وتأمل

في حال يعقوب وحذره على يوسف حتى قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّيْبُ﴾ فقالوا: ﴿أَكَلَهُ الدَّيْبُ﴾، والله وَقَّتْ للأمور أقدارها وهياً إلى الغايات سبلها، وأمور الدنيا وزينتها قد يُدرك منها المتواني ما يفوت المثابر، ويصيب منها العاجز ما يخطيء الحازم، والأسباب طريق لا بد من سلوكها، وربما عوقب إن مال إليها، وتأمل عقبي سليمان عليه السلام لما قال: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كلُّ واحدة منهنَّ غلاماً ولم يقل: إن شاء الله، فما حملت إلا واحدة، جاءت بشقِّ غلام» (رواه البخاري)، فطوبى لمن عرف المسبب وتعلق به، فإنها الغاية القصوى، فضع الرجاء والخوف في موضعهما، ولا تجعل اتقاءك لغير المخوف، ولا رجاءك في غير المدرك.

ومتى اشتد عطشك إلى ما تهوى فابسط جناح الرجاء، فالربُّ كريم، وكثرة الدعاء نعم المعتمد، ومن البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرُّ الدعاء، ويطولُ الأمد، ولا يرى أثراً للإجابة، فهذا من البلاء الذي يحتاج إلى صبر، وما يعرض للنفس من تأخير الإجابة مرض يحتاج إلى طب، فالكرم واسع والبخل معدوم، فقد يكون في التأخير مصلحة وفي الاستعجال مضرة فهذا من النعم في طي البلاء، وقد يكون الامتناع لآفة، فربّما يكون في مأكلك شبهة، أو في قلبك في وقت الدعاء غفلة، أو تُزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه.

ومن عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها نال خيرها ونجا من شرها، ومن لم ير العواقب عاد عليه بالألم ما طلب منه السلامة، وبالنصب ما رجا منه الراحة، فراقب العواقب تسلم، ولا تمل مع الهوى فتندم، ومن أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال، يقول أبو سليمان الداراني - رحمه الله -: «من صفّى صفى له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفيء في ليله». .

ومتى رأيت تكديراً في حال فاذكر نعمةً ما شكرت، أو زلةً قد فعلت، واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم، ولتكن نيتك في الخير قائمةً من غير فتور بما يعجز عنه البدن من العمل، ومن علم أن الموت يقطعه عن العمل عملاً في حياته ما يدوم له أجره بعد موته، وسعى في تحصيل ذرية تذكرك الله بعده، فما مات من خلف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ﴾

[فُصِّلَتْ: الآية ٤٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشُّكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبيناً محمداً عبده ورسوله، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ.

أما بعد: أيها المسلمون:

فالكمال عزيز، والكامل قليل الوجود، وحدّ الراحة إحجام النَّفس عن القوى تهيأً للطاعة واكتسابٍ للفضائل، فمتى زادت عن ذلك صارت توانياً وكسلاً، ومتى نقصت عنه صار مضراً بالقوى. وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلةٍ مراراً ذكراً يباشر به القلوب، ويقارع الأطماع، فإن في كثرة ذكر الموت عصمةً من الأشر، وأماناً بإذن الله من الهلع، ومصرع غيرك يريك مصرعك.

وليس في التكليف أصعبُ من الصَّبر على القضاء، ولا أفضل من الرِّضا به، فلا تحزن على ما فاتك من الدنيا، وأنزل ما أصابك من ذلك ثم انقطع، منزلةً ما لم يُصَب، وأنزل ما طُلب من ذلك ثم لم تدركه، منزلةً ما لم يُطلب، ومن تأمل بحر الدنيا وعلم كيف تتلقى الأمواج وكيف يصبر على مدافعة الأيام لم يتهول نزولَ بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء.

وأشدُّ النَّاس غفلةً من عبر السُّتين وقارب السَّبعين فإن ما بينهما معترك المنايا، ومن نازل المعترك استعدَّ للقاء، وكل يوم تحيا فيه غنيمة، يقول

النبي ﷺ: « لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » (رواه مسلم)، والدُّنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك، ولا مالَ أفضلُ من العقل والدين .
ثم اعلموا أنّ الله أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نبيّه . . .